الفصل الأول

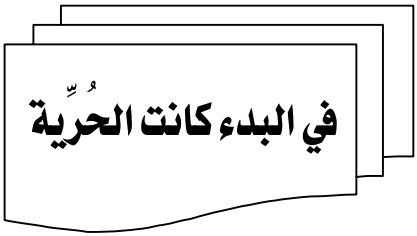

دائمًا ما نتساءل عن أهم ما في الحياة، والإجابات كثيرة ومتعددة، والتفسيرات تختلف من فردٍ لآخر، ومن مجتمعٍ لآخر، ومن زمنٍ لآخر، ومهما أُحاول أنْ أُفسر تلك الأشياء، فدائمًا ما أجد أنَّ الحُرِّية هي القيمة الأهم في تلك الحياة، الحُرِّية بمعناها الشامل غير المحدود، فالحُرِّية هي الحياة، دون الحُرِّية تصبح الحياة والموت متشابهين، وتتسم الحُرِّية باللامحدودية، وهنا تكمن إشكالية تدور حولها كثير من المشاحنات، وحتى الآن سوف نجد فكرة الحُرِّية مسار جدل في كل مكان، ولا نستطيع أنْ نتوقع أنْ تقلَّ حدة الحوار والجدل حول فكرة الحُرِّية.

إنَّ فكرة اللامحدودية هي أصل فكرة الحُرِّية، فلا توجد حرية حين تُكبل بالقيود، ومهما حاول الكثيرون تقييد الحُرِّية فلن يفلحوا، والحُرِّية ليستْ بالسهولة التي قد يتخيلها البعض، قد تحيا في مجتمعٍ ديمقراطي، وأنتَ مفتقد للحرية كفردٍ، وقد تستمتع بالحُرِّية كفردٍ، وأنتَ في مجتمعٍ ديكتاتوري، ومع ذلك فإنَّ المجتمعات التي تتوفر بها الحريات الفردية، تظل مجتمعات إنمائية وقوية ومدعِمة للفرد في كل مكانٍ.

أسئلة كثيرة تطرحها فكرة الحُرِّية، والإجابات نفسها تطرح أسئلة جديدة، ووجود أسئلة هو أحد أشكال النمو المستمر للمجتمعات، فوجود إجابات محددة سلفًا ينتفي معها وجود حقيقي للحرية، فالحياة بالأساس حالة من التساؤل المستمر المؤدي بالضرورة للحراك الواجب حدوثه في المجتمعات.

إنَّ القيام بأي نشاطٍ حياتي، يستلزم معه وجود حرية مُطلقة حتى يتم بنجاح وموضوعية، إذا أردتَ مثلًا أنْ تبحث في أي حقيقة تاريخية، فعليكَ التسلُّح بعددٍ من الحريات:

أولًا: حرية البحث، وهذا حق أصيل لكل البشر، وأحد الأركان الأساسية للمعرفة الحقيقية، وليس هذا في حد ذاته هو الأهم، وإنما التحرر من كل الأفكار المسبقة والأنماط الجاهزة، وهذا هو العامل الأساسي في نجاح البحث التاريخي، فعند قيام باحث تُركي بالبحث في مذابح الإبادة العِرقية للأرمن لعددٍ يتراوح بين مليون إلى مليون ونصف أرمني، فهذا الباحث عليه التجرُّد والتحرر تمامًا من كل المشاعر الوطنية حتى يتعامل مع تلك الأحداث التاريخية بحيادٍ تام، فالبحث الموضوعي يتطلب الحياد التام، والحياد يتطلب الحُرِّية المطلقة.

ثانيًا: حرية الاعتقاد، والاختيار، والسفر، والزواج، والشراء، والامتلاك، ولو تعاملنا مع الفكرة بجدية سوف ندرك مدى توغلها، وتداخلها في كافة مناحي الحياة.

وهنا أجد أنَّ علي القول بأنَّ الحُرِّية هي الحياة، فنحن نحيا بفخرٍ حين نشعر أننا مسئولون تمامًا عن اختياراتنا في الحياة، ونشعر بانتماءٍ لذواتنا حين يكون مصيرنا بأيدينا، فالإحساس بالحُرِّية هو المُحرِّك الأساسي للنشاط الإنساني.

(١)

الحُرِّية والإبداع ١

لا يوجد إبداع بدون حرية، وحين نستخدم كلمة الحُرِّية فالمعنى هنا مطلق، والإبداع هو المُحرِّك الرئيسي لشريان الحياة، ففي كافة مجالات الحياة ترتبط الحُرِّية ارتباطًا تلازميًا حتميًا بالإبداع.

حين تُبدع، تنطلق من داخلكَ طاقات كثيرة، وفي تلك الحياة تتآمر أشياء كثيرة كي تُحاصر إبداعكَ، مَنْ يختلف عنكَ يحاول دومًا أنْ يجعلكَ مثله لا لشيءٍ سوى لأنه يستشعر الأمان حين يتشابه معه الآخرون، حين تحب وتقتنع تمامًا، فلن يستطيع أحد أنْ يقترب من حدودكَ، وتلك الحدود هي الحُرِّية، وتلك الحدود بلا حدود، أنتَ تضعها ولا يراها غيركَ.

فالمبدع يتألق عند ازدهار الحريات، الإبداع يتطلب ازدهار كل أنواع الحريات.

فقد توصل جاليليو إلى الكثير من المكتشفات؛ لأنه لم يكن مقيد بأيَّة أفكارٍ مسبقة، ولأنه كان واضحًا وعالمًا بأنَّ الكتاب المقدس، لم يكن ولن يكون في أي وقتٍ من الأوقات كتاب علومٍ أو تاريخٍ، وحدث ذلك في وقتٍ كانت الكنيسة بأوروبا تتحكم في معظم الأشياء الحياتية، فقد اتهمتْ الكنيسة جاليليو بالهرطقة، والخروج عن أفكار الكتاب المقدس، وذلك عندما دعم أفكار كوبر نيقوس التي تدور

حول أنَّ الشمس هي مركز الكون، وليستْ الأرض، كما زعمتْ الكنيسة في ذاك الوقت أنَّ هذا ما يقوله الكتاب المقدس.

هنا تصبح القضية أكثر تعقيدًا، تفسير الكتب الدينية تفسيرًا حرفيًا بمعزلٍ عن الواقع الحياتي المُعاش، يجعل الحياة منعزلة عن الفكر الديني، فالفكر الديني يجب أنْ يعطي رؤية حياتية، أما التفاصيل الحياتية فيجب أنْ تُترك لكل مجتمعٍ مع المنطق الذي يتفق مع تلك النظرية.

إذ يجب أنْ يسود الفكر المنطقي في تفسير النشاطات الحياتية اليومية، وما يتعارض مع المنطق يجب إعادة فحصه حتى يتسنى الأخذ بالمرجعية المنطقية.

الفكر الديني بالأساس، هو محاولة لتغيير الإنسان نحو الأفضل، لا أعتقد أنَّ غياب المنطق قد يضيف أي شكلٍ إيجابي لحياة الإنسان.

العلم أساسًا يقوم على الملاحظة والتجريب ثم التغيير، فالثبات فكرة لا تنتمي للحياة أو العلم، والعلماء في حالة بحثٍ دائم، فدائمًا توجد أسئلة جديدة، والإجابات تطرح أسئلة أخرى.

وحتى يُبدع العلماء لابد من التحرر من المادي والفكري، فليس من المنطق أنْ يكون المفكر، العالم، رجل الدين في حالة احتياجٍ مادي، ثم تطلب منه التكريس التام للعمل أو الخدمة الدينية، كما أنه ليس من المنطق بأي حالٍ من الأحوال أنْ يشترك رجل الدين ـ المفترض أنه منقطع للبحث العلمي ـ في أي عملٍ تجاري، أو أنْ

يعمل لدى الحكومة، فهذا يقتنص الكثير من تلك الحُرِّية المطلقة التي يجب أنْ يتمتع بها دائمًا.

حين يخلط الفنان بين الربح المادي والفن المطلق، يقل الإبداع ويقل توهجه، فالفنان الحقيقي يُكرِّس حياته لفنه؛ لأنه هو والفن يصبحا شيئًا واحدًا.

حين رأيتُ الفنانة الكبيرة أمينة رزق على مسرح الهناجر في عام ٢٠٠٢م، تمثِّل في مسرحية اللَّيلة الثانية بعد الألف للكاتب عبدالله الطوخي، وكانت جالسة وهي تمثِّل طوال المسرحية، وكانت قد بلغتْ الرابعة والتسعين من العمر، فلن نستطيع أنْ نجد سببًا آخر غير العشق الشديد للفن، فالتمثيل بالهناجر عمومًا لا يُدر مالًا كثيرًا، ولكنه ذلك العشق الذي يجعل الحياة حياة، ويجعل أمينة رزق تقاوم آلام المرض، وتتحدى الزمن، وتُبدع، فقد وجدتْ الحياة في إبداعها، وتوحدتْ مع فنها، فأصبح الفن هو الطاقة والقوة الدافعة خلف النشاط الحياتي الذي قامتْ به.

فلحظات الإبداع للمبدع هي لحظات نشوى وذوبان، وقد ينسى الزمان والمكان، ويتوحد مع الفن في حالة إخلاصٍ يتسم بالنقاء، لذا فالحُرِّية المطلقة هي ملاذ كل فنان.

(٢)

الحُرِّية والإبداع ٢

- **التأمل في السائد:**

الإبداع هو بالأساس عملية خلق، والخلق هو أساسًا رحلة من التحدي لكل ما هو سائد، والسائد دائمًا ما يكتسب هالة قدسية بلا أسبابٍ واضحة سوى أنه سائد، وما إنْ تبدأ بتحليل ذلك حتى تفاجأ بأنَّ الكثير منه لا يقترب من المنطق بأي حالٍ من الأحوال، وبداية الإبداع هي التحرر من خرافة قدسية السائد، لنقترب أكثر من الواقع؛ لنرى أمثلة أكثر وضوحًا، وهذا سائد في وسائل الإعلام حين نتحدث مثلًا في الرياضة، لو أنَّ فريق السعودية يلعب مباراة كرة قدم ضد فريق الكاميرون، فسنجد المعلِّق الرياضي، يطالبنا أنْ نشجِّع فريق السعودية، وذلك لأنهم عرب ونحن عرب، كما لو أنَّ هذا سبب كافٍ!.

إنَّ استخدام القدرة الإبداعية هنا لتحليل ذلك الموقف والتأمل فيه، يجعلنا ندرك مدى عنصرية هذه الفكرة التي يرددها المعلِّق، وليس بالضرورة أنْ يكون ذلك المعلِّق مدركًا مدى عنصرية الفكر الذي يطرحه، ولكنه يطرحه على أيَّة حال.

وإذا تابعتَ الموقف الرياضي أكثر، ستجد أنَّ نفس المعلِّق يطالبكَ بتشجيع فريق الكاميرون حين يلعب ضد فريق إيطاليا، وذلك لأننا أفارقة مثلهم، أما حين يلعب فريق إيطاليا ضد فريق تركيا فسينادي

نفس المذيع بتشجيع تركيا؛ لأنهم مسلمون، وتتغير تلك القصة العبثية حسب الميول والتوجهات، ليس فقط في المحيط العربي بل وفي المجتمع الغربي أيضًا، لكنْ بأشكالٍ أخرى، ولحظة من التأمل في تلك الأشياء وتلك التوجهات، نجد أنَّ كثيرًا من المفاهيم السائدة لا تتفق مع مبادئ حقوق الإنسان، ونجد أنَّ التقسيمات العِرقية الدينية والمادية، ما هي إلَّا تحريف للطبيعة الأصيلة للإنسان الذي يسعى أساسًا نحو الحبِّ المطلق، وحين يمتلئ القلب بالحبِّ المطلق، تنتفي أفكار الاختلاف القائم على العِرق الديني أو الجنسي، فالنظرة الأكثر شمولية للكون تتراجع معها التجمعات المبنية على العِرق والدين، لنتأمل أكثر بهجة الحياة القائمة على الحبِّ المطلق.

حين تسافر حول العالم سوف تندهش كثيرًا، ولكنكَ أيضًا تتعلَّم كثيرًا عن الآخرين، سوف ترى مدى التنوع في الحياة في كل شيءٍ، أساليب الحياة، الموسيقى، عادات الزواج، الملبس، المأكل والمشرب، ومن ثمَّ تدرك بما لا يدع مجالًا للشك أنَّ التنوع والاختلاف هما أساس الحياة، وما تراه أنتَ حقٌّ مطلق هو فقط كذلك بالنسبة لكَ أنتَ، أما الآخرون فلهم معطيات أخرى، وإدراك ذلك هو أمر عظيم في حد ذاته، فتصبح أكثر تقبلًا لفكرة وجود الآخر، ولن يزعجكَ أنْ ترى اختلاف الآخرين، إذ يصبح ذلك أحد مكونات الحياة، فمنطق الأشياء، ومنطق الحياة هو الاختلاف، ومن ثمَّ تصبح أكثر قدرة على رؤية ذاتكَ أفضل، إذ أنكَ حينئذ تستطيع تغيير أو تعديل أو إبقاء حالكَ كما هو، وتلك هي بهجة الحياة.
الحياة هي السير للأمام والتعثُّر، وأحيانًا يكون السقوط جزءًا أساسيًا من الغوص في أعماق الحياة.

(٣)

الحُرِّية والمعتقدات

ما يعتقد الإنسان هو حق أصيل لكل فردٍ في هذا العالم، فمنذ القِدَمِ والناس تتوارث ما يعتقده الأهل، وكلما ضاقتْ مساحة الحُرِّية كلما قلَّ التفكير في هذا الاعتقاد، أو تحليله تحليلًا موضوعيًا، أو حتى التفكير في ملائمة ذلك لطريقة الحياة التي يسلكها الفرد، فيصبح دائمًا الخروج عمَّا تعتقده الجماعة دربًا من الجنون، والجموح الذي قد يؤدي إلى نبذ ذلك الفرد، وقد يصل الأمر في بعض المجتمعات إلى إهدار الدم.

والسؤال المحير الآن هو.. لماذا ينزعج أو ينفعل أو يغضب؟ ومن ثمَّ قد يستخدم العنف، أو حتى القتل لشخصٍ ما حين يختلف آخر معه، كان سابقًا له نفس المعتقد، ويدعي ذلك الغاضب من الاختلاف أنه يريد مصلحة الشخص الآخر، وهنا تبرُّز قضية الحُرِّية، وهي دائمًا الحل الأمثل في اعتقادي لمثل هذا الادعاء، فكل شخصٍ حر فيما يعتقد مهما اختلف مع الآخرين، المربك في تلك الحكاية، هو انزعاج بل وغضب الآخرين، فمن الواضح أنَّ هذا الاختلاف يخيف البعض، إذ يروا فيه تهديدًا للسلطة التي يتمتعون بها، فأول المتضررين من هذا الاختلاف هم بعض رجال الدين؛ وذلك لأنهم يرون في ذلك تهديدًا لسلطاتهم.

والادعاءات الأخرى كثيرة، مثل: معرفة مصلحتكَ أكثر منكَ، وذلك على أساس أنكَ ستظل طفلًا مدى الحياة طالما بقوا هم كبارًا، ولن تعرف أبدًا متى ستكبر؛ لأنه ليس بالإمكان أنْ تصبح أنتَ وهم كبارًا في نفس الوقت، والادعاء الأكثر غرابة، هو أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة، وذلك في حد ذاته هدم لفكرة البحث والتساؤل، فما يعتبر مطلقًا، أو من الثوابت لدى البعض ليس بالضرورة كذلك لدى الآخرين، ومن زمنٍ لآخر أيضًا.

تصوَّر مثلًا وضع المرأة قبل مائة عام في مصر، وقبل مائتي عام في أوروبا، وأيضًا فكّر في كثير من المعايير الأخلاقية على مستوى العالم على مدار التاريخ، تجد أنَّ النسبية والتغيير هما الأكثر حدوثًا وتأثيرًا.

هنا يَبرز تساؤل منطقي.. ما هو الحق المطلق إذًا؟

الحقيقة التي لا تناقش!

المطلق هو مطلق فقط في الوقت الآني لشخصٍ ما، في مكانٍ ما، في ظرفٍ ما، ولا ينسحب المطلق لفردٍ ما، أو مجموعةٍ ما على باقي الأفراد أو المجتمع، وقد يظل ذلك المطلق مطلقًا لهذا الشخص مدى الحياة، أو قد يتغيَّر إذا تغيَّر الشخص، واحتمالية تغيُّر الشخص تعتمد بدرجة كبيرة على مدى الحُرِّية المتاحة في المجتمع الذي يعيش فيه، ومدى التعرُّض لخبرات متعددة.

فكلما زادتْ مساحة الحُرِّية في مجتمعٍ ما، كلما زاد صدق الأفراد في التعبير عمَّا يعتقدون فيه، وكلما زاد القهر المطلق، كلما زاد

النفاق والرياء. إذ كيف تطلُب من شخصٍ أنْ يتبع طريقًا واحدًا في الحياة، وإنْ لم يتبعه فعليه تحمُّل عواقب ذلك، مثلما كان يحدث في أوروبا في العصور الوسطى، ويحدث الآن في بعض بلدان العالم.

فمثلًا قيام الهيئة الدينية في إيران بتحديد شكل تسريحة شعر الرجال، ومَنْ يخالف ذلك يعاقب، وهذا العبث بالحُرِّية الذي يجعل الإنسان غير قادرٍ على اختيار شكل تسريحة الشعر التي يرتاح لها، إذ يجد هيئة دينية تحدد له ذلك.. أليس هذا هو العبث ذاته؟! وقيام بعض الجماعات الدينية في أماكن مختلفة من العالم، وعلى وجه الخصوص المملكة العربية السعودية بضرب مَنْ تجده في أي مكان أثناء مواقيت الصلاة، أليس هذا أيضًا عبثًا بالحُرِّية الشخصية؟! وهل يقبل الله صلاة من شخصٍ هو مجبور عليها؟ أليس من القهر أنْ تُجبر المرأة في السعودية على عدم قيادة السيارة؟ ثم يعفو جلالة الملك عن إحدى السيدات حين قُبِضَ عليها متلبسة بقيادة السيارة!.

في أيَّة دولة في هذا العالم، في هذا القرن، يقبض على إنسان؛ لأنه يقود أو تقود سيارة، ويعفو عنها الملك! لا يبدو لي أنه توجد جريمة كي يتم العفو عنها، أيضًا مُنِعَ بيع المشروبات الروحية؛ لأنها محرمة دينيًا، هو عبث بالحُرِّية الدينية والشخصية، فدينيًا المعيار الحقيقي هو وجود الشيء، ثم قرارك الشخصي أنْ لا تمسسه رغم أنه متاح، وتلك هي الحُرِّية التي تفسح الطريق لمعرفة حقيقية، والقرار النابع من القلب هو قرار حياة، أما المجبر على فعل الشيء، فهو في حالة موتٍ محقق.

(٤)

الحُرِّية والهوية

- **ما هي الهوية؟**

دائمًا ما يُطرح هذا السؤال على عدة أصعدة، الهوية هي الشخص ذاته بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فهي الشخص بكل كيانه، التربية، الأهل، التعليم، الدين، وسائل الإعلام، التوجهات، والسلوك، وغير ذلك الكثير.

أما السؤال الثاني فهو.. هل تُحدَّد الهوية سلفًا من الآخرين أم أنَّ للشخص مطلق الحُرِّية في أنْ يُحدِّد هويته دون قيود؟!.

والإجابة: هي وجود ارتباط وثيق بين الهوية والحُرِّية، فبدون الحُرِّية تتكون هوية مشوهة حيث إنها تكوَّنتْ بناءً على قناعات الآخرين من ناحية، والضغوط المجتمعية والصور النمطية من ناحية أخرى.

فنحن نسلُك بطريقةٍ ما نتيجة التعوُّد على سلوكٍ ما، ثم يُدعَّم هذا السلوك بقبول الآخرين له، وهؤلاء الآخرين غالبًا ما يكونون القوة المؤثرة في ذاك المجتمع المعني، وهذا لا يعني بالضرورة أنَّ ذاك السلوك إيجابي أو سلبي، ولكنه يعني أنه السلوك المقبول، فقبول سلوكٍ ما، في مجتمعٍ ما، في وقتٍ ما، يظل دائمًا وأبدًا أمرًا نسبيًا.

وبناءً على هذا نجد الكثير من السلوكيات المقبولة، أو غير المقبولة في كل المجتمعات، طريقة تناول الحساء في المملكة المتحدة وفي كوريا مثلًا، ففي المملكة المتحدة من غير المقبول بأي حالٍ من الأحوال أنْ يصدُّر عنكَ صوتًا خلال تناول الحساء، والعكس مقبول تمامًا في كوريا، في هذه الحالة تتوقف الإجابة عن سؤالٍ.. ما هو السلوك المحبب، والأكثر قبولًا اجتماعيًا على ثقافتكَ أنتَ، ومدى قربه أو بعده عن إحدى الثقافتين، وليس بالضرورة عن السلوك في حد ذاته؟.

ومن هنا نطرح السؤال التالي عن الحُرِّية ودورها في نقد وتغيير السلوك، فقبول كل أشكال السلوك كما هي دون فحصٍ، وتمحيصٍ غالبًا ما يؤدي إلى التمسُّك ببعض السلوكيات والاتجاهات شديدة السلبية.

وهذا لا يعني تفضيل سلوكٍ عن سلوكٍ آخر، لكنَّ ذلك يعني أنَّ على كل شخصٍ مراجعة كافة السلوكيات التي يقوم بها، وتتم هذه المراجعة في إطار الوعي بالمنطق، وليس ما تمَّ استلامه من الأجداد، وهذا الأمر ليس باليسير، ولكنه يتطلب جهودًا مضنية، وصراعًا مع القوى المحافظة، إذ أنَّ تلك القوى المحافظة غالبًا ما تحاول أنْ تحافظ على معظم الأشياء دون تغيير.

وهنا تكمن قيمة وصلابة فكرة الحُرِّية، إذ أنَّ الحُرِّية هي المحك الأساسي لكل سلوكٍ إنساني يتم عن قناعة تامة، وليس عن عادة أو قدسية وهمية.

والإنسان هو المسئول الأول عن تكوين هويته وكينونته، وليس من حقِّ كائنٍ مَنْ كان أنْ يُحدِّد له سلفًا الطريق الذي سوف يسلُكه، فلو قرر شخص مصري يعيش في إحدى قرى صعيد مصر أنْ يطيل شعره، فسوف يجد الكثير من المضايقات والتحرُّشات من معظم الناس، بدءًا من أقرب الأهل إلى أي عابر سبيل، سيكون لديهم الحق في وصفه بأبشع الصفات، والمسألة تكمن في اختفاء أي شكلٍ من أشكال الدعم، ولا أقصد هنا دعمًا للشعر الطويل، فهذا ليس بيت القصيد، المعنى هنا بالمناقشة هو دعم الحُرِّية الشخصية تحت أيَّة ظروفٍ، فكلما زاد دعم الحريات، كلما تحددتْ الهوية الحقيقية للأفراد، فالقهر يمحي الهوية، وعليه فلن نستطيع تبيُّن حقيقة هوية الأفراد إلَّا في وجود الحُرِّية المطلقة.

فالإنسان يعيش حياة طبيعية بقدر ما يتمتع بحرية في اتخاذ كل قراراته المصيرية وغير المصيرية، فإذا كان الإنسان وهويته شيئًا واحدًا، فلن تكون الهوية إلَّا مع حرية الإنسان، فعلى كل إنسان إذًا أنْ يقبض على حريته تمامًا، فالحياة لا تعاش حقًا إذا قُيدنا بما يحدده الآخرون.

وقد قال سارتر سابقًا: "الآخرون هم الجحيم" فهل هم حقًا كذلك أم نحن ـ المسئولين ـ عن تدخل الآخرين في حياتنا بطريقة سافرة؟ فها قد آن الأوان أنْ نقرر وحدنا كيف سوف تكون شكل حياتنا وتوجهاتنا، المتعة الحقيقية في هذه الحياة هي أنْ تصبح ما تريد أنْ تكونه.

(٥)

"رُبَّ فضلٍ كان في بعض الذنوب"

ما الكمال للنزيه ربَّ فضلٍ كان في بعض الذنوب

"جبران خليل جبران"

كثيرًا ما يشعر الإنسان أنه ليس من حقه أنْ يتحدث عن الفضيلة إلَّا إذا كان هو ذاته يمتلك تلك الفضيلة، وفي هذا الشأن يترك الحديث لآخرين، يعتقد أنهم أصحاب الحق الأوحد في الحديث عن الله والفضيلة، وإذا تأملنا للحظاتٍ سندرك أنَّ في كل شخصٍ حولنا فضيلة ما.

والفضيلة هي أساسًا كلها خير، ولن تتحقق فضيلة إلَّا إذا ارتبطتْ ارتباطًا وثيقًا بفكرة الحُرِّية، ويحق لكل إنسان أنْ يحاول أنْ يصبح فاضلًا بطريقته هو، فتحديد أشكال ثابتة ومحددة سلفًا لما هو فاضل أم لا، هو أمر يحتاج لكثير من التساؤل.

فالإجبار على الفضيلة هو الرذيلة ذاتها، فالفضيلة تصاحب الحُرِّية في كل مكان، فإذا أعطيتَ الفقراء للتباهي، أو لأنكَ في ضيقٍ ما وتود أنْ يساعدكَ الله، أو لأنكَ تشعر بالذنب لكثرة الرشاوى المدفوعة للكثيرين، فما أعطيته للفقراء لن يساعدكَ، فما هو إلَّا أحد

أشكال غسيل الأموال، العطاء عطاء فقط حين ينبع من القلب، وحين يصبح جزءًا من حياتكَ.

حين ترتبط الحُرِّية بالفضيلة تدوم الفضيلة، ويسعد بها الإنسان مدى الحياة، فالأم تريزا كانت تعطي بصدقٍ وحب؛ لأنها أرادتْ ذلك، فالإرادة الحرة تُخرج أجمل ما فينا.

- **الكاتراز Alcatraz:**

القهر يُخرج أسوأ ما في الإنسان، إذ يحكي فيلم الكاتراز أشهر السجون الأمريكية عن سجينٍ قضى سنواتٍ طويلة داخل حفرة كحبسٍ انفرادي، وحين عاد إلى السجن العادي، وبسبب القهر الشديد الذي عانى منه كثيرًا، قام بقتل مَنْ وشى عنه مستخدمًا معلقة، فالقهر يحوِّلنا إلى أشخاصٍ آخرين، والحُرِّية تُخرِّج أفضل ما فينا، وكلما زادتْ الحُرِّية، أصبحتْ الفضائل جلية، واختفى الرياء والنفاق.

حين نتزوج عن قناعة وحرية، فإنَّ احتمالات الخيانة الزوجية تكون في أقل معدلاتها، وحين نتنفس حرية في كل مناحي الحياة، ستظهر فضائلنا بوضوح، فالحُرِّية هي الطبيعة الفطرية، ونظرة على سلوك الأطفال وردود أفعالهم التلقائية، نتأكد كم الأسى الذي يعيشه الكثير من الكبار، فالطفل يتعامل مع الحياة بحرية وتلقائية وبدون أقنعة، فيسعد تمامًا، ويأتي الآباء والأقارب والمجتمع خصوصًا في الدول الديكتاتورية القمعية الأبوية، فيكبلوا، ويقيدوا أولادهم بالكثير من الأغلال، التي تحوِّلهم من أطفال سعداء

يعيشون بعفوية إلى أشياء أخرى كثيرة، وتخيل معي كم الصدمات التي يصاب بها الأطفال، حين يرون مدى التناقض بين ما يفعله الآباء وما يتحدثون به إلى أولادهم.

فحين يكون الآباء أحرارًا، فإنَّ كل ما يقدموه لأبنائهم يكون صادقًا، فإذا قلَّتْ الحُرِّية قلَّ الصدق، وليس من المطلوب أنْ يكون الأب بطلًا في نظر أبنائه، وإنما هو شخص عادي يحبهم كثيرًا، يعطي ما لديه، يصيب ويخطئ، ليس دائمًا على صواب، لكنه يقر بخطئه، فاضطرار الآباء أنْ يقولوا أشياء لا يعنوها، يرسل الكثير من الصور السلبية للأبناء.

(٦)

الحُرِّية والزواج

فبما أنَّ الزواج من أكثر العلاقات تعقيدًا في الحياة، فوجود حرية الاختيار أحد أهم الأسس التي تساعد فعليًا في بناء علاقة قادرة على الاستمرار، وعدم وجود حرية كاملة يجعل لتلك العلاقة مُسمى آخر غير الزواج، والاستمرار في تلك العلاقة لابد وأنْ يبنى على الحُرِّية، فشعور طرف من الاثنين في وقتٍ ما أنه مكبل بقيد تلك العلاقة، يصيب قدسية العلاقة بشروخ، تؤدي إلى كسرٍ يستحيل إصلاحه.

فحين تحب آخر قانعًا تمامًا، عندئذ تزيد قدرتكَ على التسامح وقبول الآخر كما هو، والحُرِّية في الوجود مع الآخر، هي ما تجعل السعادة حقيقية فعلًا، فالزواج هو أنْ ترغب حقًا في قضاء بقية الحياة مع شخصٍ آخر في كل أحواله وظروفه، وذلك يستتبع بالضرورة احتمالٍ وصبرٍ والتزامٍ، فكما ترتبط فكرة الحُرِّية بالاختيار، فهي ترتبط أيضًا ارتباطًا وثيقًا بالالتزام، والحُرِّية هي ما يجعلنا نحاول بجدٍّ أنْ نحافظ على تلك العلاقة القائمة أساسًا على الاختيار، ففكرة الاختيار هي ما تجعل الحياة تستحق أنْ نحياها، فحالة الاختيار هي حالة الحُرِّية، يستتبعها مسئولية تجاه ذلك الاختيار، والحُرِّية في الاختيار تزيد الدافعية والحماس لإكمال تلك

العلاقة رغم وجود الصعاب، لن يتحمس شخص لشيءٍ لم يختره، سيظل دومًا يشعر بثقل هذا الهمَّ الجاسم فوق الصدر، ولن يسعد على أي مستوى للعلاقة.

ففي كل مستويات العلاقة الزوجية، يظل الاختيار هو المحك الأساسي لمدى النجاح المتوقع، فمثلًا على مستوى العلاقة الجنسية، لن يستمتع بها الطرفان إلَّا إذا أحبا القيام بها حقًا، حين تختار أنْ تلتصق جسديًا بالآخر، فتلك رغبة صادقة في الالتصاق بالآخر، والذوبان داخل الآخر حتى تصبحا جسديًا وروحيًا شيئًا واحدًا، وهذا ما يجعل العلاقة أعمق وأكثر روحانية، وإذا تمَّ قهر أحد الشريكين على ممارسة العلاقة الجنسية، فهو أشبه بالاغتصاب لكنْ في إطار شرعي.

ويتعين علينا أنْ نتأمل ما يسمى بزواج المصلحة، وعمَّا إذا كان يختلف عن الدعارة، فأوجه الشبه كثيرة بين الدعارة وزواج المصلحة، فمَنْ يتزوج لأسبابٍ تتعلق بالمال، فإنه بكل تأكيد يفقد حريته التي هي أغلى ما يملك.

ولكي يختار الشخص أنْ يتزوج أو لا يتزوج، عليه أنْ يعرف نفسه جيدًا، ويكون واقعيًا في اختياره، ففكرة الوقوع في الحبِّ، والقول بأنَّ ذلك لم يكن بإرادتكَ هي فكرة ضد الحُرِّية والمنطق والنضج النفسي.

إذا كنتَ حُرًّا فإنكَ تختار، أما إذا استعبدتَ بشهوة الامتلاك أو المال أو الجنس، أي: أنكَ تزوجتَ شخصًا فقط لأحد تلك الأسباب، فإنكَ بعيد جدًا عن تلك الحُرِّية التي تجلب السعادة.

فحين يحاول رجل شديد الثراء أنْ يستميل قلب فتاة، وهذا مشهد كلاسيكي في كثير من العلاقات، ربما قد شهده كثير منا، فهذه حالة ابتزاز رخيصة للمشاعر ـ ليس إلَّا ـ وقد يصاحبها حالة سعادة وهمية، ورسم دائم للابتسامات، لكنْ في لحظات الهدوء والتأمل بعمق في الحياة، يدرك الفرد مدى الكذِّب الذي يحيا فيه، ومدى القيد المدمي والأسوار المحيطة بحياة أشبه بالزيف الحقير.

فالزواج أساسًا مثله مثل أغلب العلاقات البشرية تعتمد على الحُرِّية، فالحُرِّية وحدها هي ما تحدد مدى مسئولية الإنسان عمَّا يقوم به.

لا يقدِّس الزواج الطقوس الدينية المصاحبة للزواج بقدر ما يقدِّسه سلوك الزوجين داخل إطار الزواج، فليستْ المراسم الدينية سوى مراسم إلَّا إذا سلكنا في الحياة بروح تلك المراسم، والخصوصية الشديدة للزواج هي ما تجعل هناك قواعد ثابتة وغير قابلة للنقاش أو التعديل، لوجود صبغة دينية تضفي قدسية ما، هو أمر في غاية التعقيد حيث إنَّ قداسة الفكرة لا يتبعها بالضرورة قداسة الأشخاص، وعليه فعلينا توخي الحذر، والتعامل مع كل حالة على حده.

ومفهوم وممارسة فكرة الزواج، لابد وأنْ يعتريهما التغيير مع تغيُّر الزمان والمكان، وليس أدل على ذلك من اختلاف فكرة الزواج، وممارسته مع اختلاف المكان في العصر الحالي حتى مع ثبات عوامل أخرى.

ليملأ كل واحدٍ منكم كأس رفيقه، ولكنْ لا تشربوا من كأسٍ واحدة

"النبي" / جبران خليل جبران

في معنى الزواج والحياة المشتركة، ينبغي وجود مساحة من الحُرِّية للفردين حتى يحاول كلاهما تحقيق ذاته، والاستمتاع بالهوايات الخاصة، في حديثٍ لي مع صديقة، قالتْ لي عن رغبتها في السفر قبل أنْ تتزوج. إذ أنها تعتقد أنها ستكون متزوجة خلال عام، وقد أبديتُ دهشتي لهذا الربط غير المنطقي، فقالتْ لي إنها عند الزواج ستقوم بعمل كل الأشياء مع زوجها.

وهذا في حد ذاته تفكير منطقي، إذا كان الاثنان لديهما نفس الميول ومواعيد عملهما تتناسب، فليس من المنطق في شيء أنْ يقوم الزوجان بكل الأشياء معًا، توجد أشياء خاصة بكل فرد، قد تحب أنْ تستمتع بنوعٍ ما من الموسيقى، أو الألعاب، أو الرياضة، وهذه المساحة لا تقلّل من قيمة المشاركة بين الزوجين، فمن الطبيعي وجود الكثير من الأشياء المشتركة، وقد يكون من المستحيل أنْ تكون كل الأشياء مشتركة، وكلما زادتْ الحُرِّية، كلما زادتْ فرص نجاح العلاقة الزوجية.

(٧)

الحُرِّية والخوف

حين يشعر الإنسان بالخوف، تتراجع خطواته وترتعش يديه، الخوف يجعلنا لا نتحرك للأمام، فالخوف من المستقبل يجعلنا في حالة قلقٍ دائم، يستحيل معه حين ذاك أنْ نستمتع بالحاضر المُعاش.

لن يتحرك الإنسان إلى الأمام إلَّا إذا نُزِعَ عنه كل أشكال الخوف، وحين يتحرر الإنسان من الخوف، فإنه يستطيع أنْ يحيا بثقة، ويخطو للأمام كاسرًا كل قيود الخوف.

- **ما هي الأشياء التي تخيف الإنسان؟**

يخاف الإنسان أنْ يخطئ فيخسر الحياة، بعد الموت الجنة أو الفردوس، وهذا ما يجعل الإنسان في حالة من التوتر التي تفسد بدورها الحياة، فالخوف من الخطأ ما هو إلَّا خوف من المحاولة والتجريب، وبالتالي فهو يؤدي إلى جمودٍ شديدٍ، حين يخاف الإنسان لا تقوى قدميه على السير، يقف وتقف الحياة من حوله.

توجد كثير من الأشياء التي يخشى أنْ يفكّر بها الإنسان، فقد قيل دائمًا "توجد حدود للأفكار" وهذا محض افتراء، إذ أنَّ الأفكار تتكون أساسًا في رحاب الحُرِّية، والأفكار تنمو وتتنوع حين نلقي الخوف جانبًا، والحُرِّية تعطي الإنسان الثقة فيما يقوم به حتى إذا أخطأ، فهذا جزء من الحياة.

ومن الخطايا الرهيبة المنتشرة في العالم الإيذاء الجسدي للأطفال، وهي تضر الطفل ضررًا شديدًا، إذ أنَّ الطفل ـ وهو الأجمل في تلك الحياة، حيث الحُرِّية متجسدة بأدق معانيها في حياته ـ ترتعش يداه قبل القيام بأبسط الأشياء، وحين تعاقب الطفل جسديًا، فقد قمتَ ببناء سور بينكَ وبينه، ويصبح بعد ذلك من الصعب العبور له، كما أنكَ قمتَ بتقييد بعضٍ من الحُرِّية في داخله، وتكرار فعل الضرب يخلّق طفلًا مهزوزًا سرعان ما يتحول إلى شابٍ لديه مشاكل نفسية واجتماعية، يفقد الثقة في نفسه في مواقف اجتماعية بسيطة.

وتربية ثقافة الخوف تعطّل نمو الحُرِّية داخل الإنسان، فيحيا مهزوز الثقة، إذ عليه دومًا مراجعة أفعاله وفقًا لمعايير لم يكن له دور في وضعها.

فحينما نضع نسقًا أخلاقيًا لأولادنا، لابد من أنْ نشرحه لهم، ولماذا يجب عليهم أنْ يتبعوا سلوكًا ما، فقناعة شخصٍ ما بما يقوم به، تجعل من القيام بذلك سلوكًا أصليًا وليس عرضيًا، والسلوك يصبح جزءًا أصيلًا من حياتنا، ومن ثمَّ تقهر الحُرِّية كل أشكال الخوف، فالإنسان الخائف هو إنسان ميت، يسير على قدميه، يأكل ويشرب وينام، فمَنْ يخلّق الخوف في الآخرين كمعظم الأنظمة الديكتاتورية يسرِّق الحياة منهم، وتأتي لحظة ينفجر فيها الخائف، فكثير من الثورات في العالم كان أحد أسباب قيامها كسر حاجز الخوف.

أحد أهم أسباب نجاح القيِّم والمبادئ الديمقراطية في كثير من أنحاء العالم، هي بناؤها على فكرة الحق المطلق في التعبير عمَّا بداخل الفرد، وحين تستمتع بحقِّ التعبير، الاعتراض والرفض، وحين تجد

رد فعل إيجابي تجاه أمرٍ، قد قمتَ بالاعتراض عليه، سوف تشعر في تلك اللحظة بأهمية ما لوجودكَ، وتلك أحد مميزات المجتمع الديمقراطي، فقط حين لا تخشى أنْ تعبِّر عن نفسكَ، سوف تتغير أشياء كثيرة داخلكَ وداخل الآخرين.

(٨)

الحُرِّية والتغيير

غالبًا ما يخشى الإنسان التغيير، حيث إنَّ الأسهل أنْ نعيد ما جربه الآخرين، والتغيير مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحُرِّية، حين يفكّر الإنسان بحرية فإنَّ فكرة التغيير تصبح أكثر قابلية للحدوث، والحُرِّية هنا مرتبطة بالبحث الموثق وعدم قبول المسلَّمات، ويتغير الإنسان لِما يريده حين يصبح قادرًا على تحليل المسلَّمات التي زُرِعَتْ داخله، وهل هي تقترب أو تشبه ما يريد أنْ يكون أم لا؟ فهل كل ما زُرِعَ داخلنا هو ما نريد أنْ نصبحه فعلًا.

قد يعيش شخص ما حياة طويلة دون أنْ يتغير، ويكتشف أنَّ ما مرَّ به ما هو إلَّا وهمٌ، قد قضى معظم حياته في ذلك الأسر، إنَّ تلك الحياة هي ما يجب أنْ يحياها.

- **لماذا لا يتغير الكثيرون؟**

التغيير يحتاج إلى جهدٍ شاق، بادئ ذي بدء يحتاج التغيير إلى وعي بوجود مشكلةٍ ما، وهذه هي المرحلة الأولى التي من خلالها يتغير الشخص، ثم يبدأ الشخص في تحليل الواقع، ومن ثمَّ يستطيع انتقاد ما يعيقه عن التغيير، والانتقاد الذاتي يحتاج إلى الحُرِّية التي تؤدي إلى فهم أعمق للذات.

والشيء الصادم في كثيرٍ من الأحيان، هو أنَّ رفض التغيير ينبع من كسلٍ في أنْ نفكّر في الواقع الحياتي، فقد يقبل البعض أنْ يحيا كما هو؛ وذلك لأنَّ عملية تغيير السلوك ذاتها تتطلب جهدًا ومثابرة دائمة، والرغبة الشديدة في التغيير تنبع أساسًا من قناعة شديدة، ورغبة حقيقية في تغيير الواقع.

- **ماذا نحتاج لكي نتغير؟**

المعضلة الأساسية في التغيير هي أنكَ تحاول تغيير عادة، هي أساسًا تكاد تكون متأصلة أو هي فعلًا متأصلة، فتغيير تلك العادة سوف يحتاج إلى جهدٍ شاق وصبرٍ وإيمانٍ بمدى فاعلية وأهمية التغيير في حياتنا، والذي لا يرغب في التغيير إما من شدة الكسل، أو غياب الهدف، أو العشوائية التي يحيا فيها، ذلك الشخص ستجده دائمًا يحاول جاهدًا أنْ يقلّل، وقد يحقّر مما يقوم به الآخرون من محاولات جادة للتغيير، غالبًا ما نجد المحبطين والفاشلين، يستخدمون جملة (كل الناس بتعمل كده) وهذا يريحهم إلى حدٍ كبير، فإذا كان الجميع مثلهم فلا عيب فيهم.

نحتاج أشياء كثيرة، تبدأ من الحُرِّية حيث إنها تفتح الآفاق نحو التغيير، فالحياة أساسًا في حالة تغيُّر مستمر ودائم، وأحد الأسباب الأساسية للانقراض، هي عدم القدرة على مواكبة الواقع المتغيِّر بسرعة وشدة، يقول داروين: (ليس البقاء للأقوى أو الأذكى، وإنما للأكثر تكيُّفًا مع التغيُّر) فالتغيير أمر حتمي، ويهرب منه البعض لأسبابٍ كثيرة.

الواقعية في فِهم الذات، وتبدأ من فِهم أوجه القصور، وبالتالي تُحدِّد خطة واضحة المعالم، وتستطيع معرفة ما يجب أنْ تحاول تحسينه، وما عليكَ أنْ تلفظه، وما يجب البدء في تعلُّمه، فالتغيير ليس بالشيء اليسير أو البسيط، فهو يستغرق وقتًا طويلًا ومليئًا بالتحديات، وهي تلك الحياة حالة من الحركة المستمرة، ومن ثَمَّ الوعي بالمشكلة، ثم تحديد خطة محددة المعالم، والجهد والمثابرة لتحقيق الهدف، هي معالم الوصول للتغيير المنشود.

(٩)

الحُرِّية والتسامح الثقافي

إنَّ الإيمان الحقيقي بالحُرِّية يتواكب تمامًا مع فكرة قبول الآخر كما هو، ووجود الاختلاف الثقافي هو جزء أساسي من الحياة، فمنذ بدء الخليقة وتلك الاختلافات والخلافات قائمة شئنا أم أبينا، وتكمن هنا أهمية الحُرِّية في كونها الدستور الذي يحكم الحياة بحيث يجد الفرد العدالة حيث يعيش.

وتكمن كثير من المشاكل في وجود ثقافة مهيمنة في مجتمعٍ ما، وفرضها كأسلوبٍ للحياة على كل الثقافات الأخرى، وذلك على افتراض أنها الثقافة الأكثر أهمية وأحيانًا أخرى الأكثر نقاءً.

ولنبدأ بفكرة قبول الآخر، وهي لا تعني إطلاقًا قبول أو رفض، أو تحليل أفكاره أو أسلوب الحياة الذي يتبعه، فهذا من شأن الشخص ذاته، فقد ترفض أفكار شخصٍ ما تمامًا، ولكنْ في وجود الحُرِّية التي تغذي التسامح الثقافي، تستطيع التعايش مع الآخرين وقبولهم، وقد ترفض صداقة هؤلاء المختلفين عنكَ، وهذا حقٌّ أصيلٌ لكَ، لكنَّ وجودهم هو أمر مسلَّم به، ولن تعارضه؛ لأنه جزء أساسي من الحياة، حيث الاختلاف هو جوهر الكون.

ومن المهازل الفكرية أنْ يعتقد البعض أنَّ من واجبه أنْ يغيِّر الآخرين إلى ما يؤمن به، على أساس أنَّ ذلك هو الحقيقة المطلقة.

من حقِّ كل فردٍ أنْ يعتقد أنَّ معتقداته هي حقٌّ مطلق وغير قابلة للنقاش، ومن حقه أيضًا أنْ يعتقد أنَّ باقي المعتقدات على غير صواب، لكنْ علينا دائمًا أنْ ندرك أنَّ اعتقادنا بعدم نفع فكرة ما لا يقلّل قيمتها، محاولات البعض المستميتة كي يثبتوا فساد فِكر الآخرين، تعكس غالبًا رغبة شديدة في إثبات صحة ما يعتقد الفرد لنفسه، وتمني البعض أنْ يؤمن الجميع بنفس الشيء يتنافى مع طبيعة الحياة.

والتعايش مع الاختلاف أحد أهم أركان الحياة التي تتطلب روحًا متسامحة مع الحياة، سعيدة بما تؤمن به رغم اختلاف ذلك مع العالم كله، لن يضار العالم إذا اعتقد شخص في شيءٍ، يختلف معه العالم كله، فجوهر الحياة الحقيقي أنْ نحيا كما نحب، وليس كما يرغب أو يرى الآخرون، فتلك هي الحياة، وحين نحيا كما رأى الآخرون نصبح مجرد مسخًا.

لكي نستمتع حقًا بتلك الحياة لابد أنْ نضع بصمة هي لنا وليس لغيرنا، وعندما نقنع بحياتنا ورؤيتنا لها، لن ننشغل كثيرًا بحياة الآخرين، وسنصبح أكثر قابلية لقبول الآخر كما هو.

الانشغال بالآخر هو في حد ذاته عجز عن الانشغال بالذات، ومن ثمَّ فِهمها، فالآخرون مختلفون في جميع الأحوال، وحين ننفتح على الآخر بهدوءٍ يصبح من اليسير التعلُّم من وعن الآخر، والانشغال الزائد بالآخر يشوِّه في أحيانًا كثيرة رؤيتنا لذواتنا، فالإنسان مطالب دائمًا بالبحث داخل ذاته، والتعرُّف على ما يجعله في حالة عشق،

قد يكون عاشقًا للموسيقى، الكيمياء، كرة القدم، تصميم الملابس، القراءة، الأطفال.

حين يدرك الإنسان ما يعشق عليه التعامل بجدية شديدة مع ذلك العشق، فالعشق وحده لا يكفي، إذ لابد أنْ يصاحبه عمل جاد ومثمر، وتلك هي الخطوة العملية تجاه تسامح حقيقي، فالتطور الذاتي الدائم ما هو إلَّا خطوة أولى تجاه حياة مثمرة.

والإبحار في الذات يساعدنا بشدة أنْ نصبح ما نريد أنْ نكون، فغالبًا الشخصيات المشوَّهة غير سعيدة بما تقوم به في الحياة، لذا لا نستطيع تَقبُّل اختلاف الآخرين.

فلن تتقبل الآخرين قبل أنْ تقبل نفسكَ، ولن تحب أي آخر قبل أنْ تحب نفسكَ.

(١٠)

ليس كما تراه أنتَ
(الحُرِّية والآخر)

يروي لنا العبقري "توفيق الحكيم" الأسطورة اليونانية (بيجماليون) بطريقته هو في مسرحية شديدة المتعة ـ قطعة من الفن الخالص ـ إذ يحكي عن فنانٍ يدعى بيجماليون، يعشق الفن لدرجة الجنون، فالفن له هو الحياة، ما ينبض في عروقه هو الفن، ينحت بيجماليون تمثالًا غاية في الجمال لامرأة تدعى جالاطيا، ومن شدة حبه للتمثال يطلب من فينوس إله الحب والخصب عند اليونانيين أنْ تحوِّل التمثال إلى حقيقة، وتصبح جالاطيا امرأة عادية تُكنِّس وتَمسح وتطبخ، فسئم الفنان رؤية الفن الكامل يتحول إلى تلك المرأة العادية، وتحدى الآلهة أنْ تعيدها له مرة أخرى، فقبلتْ الآلهة التحدي وأعادتها إلى تمثال، وهنا يتمنى بيجماليون أنْ يعود التمثال إلى الحياة مرة أخرى، ويطلب من الآلهة لكنْ دون جدوى، ويغضب بيجماليون ويحطِّم التمثال، ويضيع كل شيءٍ، يقول الصينيون: "احذر ما تتمناه؛ لأنه قد يتحقق".

يا ليت بيجماليون استمع لنصيحة الصينيين، فلم يتمنَ دون أنْ يدرك الفرق بين الفن والواقع، فالزوجة أو الزوج واقع وليس قطعة

فنية، فقط المراهقون يتمنون الزواج من النجوم والنجمات، ولكنْ.. كيف نراهم في السينما؟ ليس هو الواقع ولا يقترب حتى منه.

لم يدرك مَنْ حطَّم تماثيل بوذا الفارق بين الفن والحياة، لم يدرك عبدالله بدر الذي أهان الفنانة إلهام شاهين وآخرين الفرق بين فن السينما والحياة، وفكرة السياق هي التي تفسر أي سلوكٍ بشري، ففي السياق الفني يكون التقييم فنيًا وليس أخلاقيًا، ولو أراد أحد أنْ يقوم بذلك مثل عبدالله بدر، فعليه أنْ يستخدم ألفاظًا تقييمية وليس إهانة للآخرين.

الفن بالأساس عمل جمالي، يدركه الدارس لعلوم الجمال والمحب للفنون، والفن قادر على أنْ يقترب من الناس، ويمس مشاعرهم، ويجعلهم أكثر رقة، وحتى حين نختلف لن نهين الآخر، بل سوف نتفهم فكرة نسبية الرؤية.

يقول "هرب كوهين" كبير المفاوضين للرئيس الأمريكي السابق چيمي كارتر: "أنا وأنتَ نرى الأشياء ليستْ كما هي، بل كما نحن عليه" وهذه حقيقة كونية، لو أدركها الجميع لما بغض أحد الاختلاف، يوجد بالعالم كثير من الأجناس والأديان، ولو أراد كل صاحب مذهب أنْ يفرضه على الجميع باعتباره الحق المطلق، وباعتبار ما يعتقدوا فيه هو ضلال مبين، لزادتْ كوارث الحياة.

حجر الأساس في بناء علاقات صحيحة، هو احترام الآخر، واحترام ما يعتقد هو أنه مقدس، حتى ولو اختلف جوهريًا مع ما تعتقد أنتَ، وببساطة لأنَّ ما يعتقده هو يكون في سياق معتقداته

مقدسًا لديه، وليس جزءًا من معتقداتكَ أنتَ، فلا ينبغي هنا أنْ تشعر بضلاله بل في هذه الحالة تعترف باختلافه، وأنتَ تؤمن بشيءٍ مغاير في سياقكَ أنتَ، والاختلاف هو الجوهر الحقيقي الذي تبنى عليه الحياة، الآخر المختلف عنكَ ينظر إلى نفس الشيء الذي تنظر أنتَ له، وقد يقدِّسه أو يحترمه، وقد لا يعني أي شيءٍ لكَ، وهذا الاختلاف هو روح الحياة.

الحق في الاختلاف أحد أهم حقوق الإنسان، أنْ تختلف عمَّا هو سائد، أنْ تقرِّر ماذا تريد في تلك الحياة، ولا يجب أنْ يعبث آخر بما تراه أنتَ أنه صحيح، ومن حقكَ أنْ تغيِّر ما تعتقد اليوم أو الغد، ثم تتراجع عن هذا وذاك، وتبدأ من جديد طالما تعتقد بضميرٍ صالح، أنَّ ما تقوم به هو ما ينبغي عليكَ القيام به، الحُرِّية في الاختيار هي ما تجعلنا ما نريد، وليس ما يريده لنا الآخرون، فلو لم تقم به اليوم.. فمتى إذًا؟.

سوف يستمر في الفن فقط العاشقون للفنون، وسوف ينسحب كافة المتاجرين بالفنون، سوف يبقى فقط الفنان الحقيقي، تحية لكل العاشقين.

(١١)

الحُرِّية وآليات التعامل مع الآخر

التراكم هو من محددات السلوك البشري، في السلوك اليومي نتصرف بحكم التعوُّد، ونحن نتعامل مع مشاكلنا كلها بنفس الطريقة حتى أنتجنا نمطًا سلوكيًا مشوَّهًا وغير واضح المعالم، فمنذ هجوم الشباب على السفارة الإسرائيلية مرورًا بالسفارة السعودية، ثم السورية، ثم حاليًا الأمريكية، لم نفهم الغرض من استخدام العنف غير المبرر تجاه طرفٍ، ليس معني بالمشكلة أساسًا، فالسفارة ممثّل سياسي وليستْ طرفًا، وتوجد مواثيق دولية لحمايتها، فهل تقوم الدولة بدورها بحزم في حماية السفارات؟.

يقول نيوتن: "لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار، ومضاد له في الاتجاه" ومعظم ما نقوم به لا يتفق مع هذه القاعدة من حيث المقدار أو الاتجاه، بدءًا من أحداث ماسبيرو، محمد محمود، مجلس الوزراء، أطفيح، كنيسة إمبابة، استاد بورسعيد، كنيسة المارياناب ودهشور، ولكل حدثٍ منهم آلياته، والنتيجة موت وإصابة الكثير من الشباب بلا سببٍ واضح، أو قضية حقيقية.

والمتأمل للواقع المصري يجد بوضوح مشكلة تواصل جلية في معظم قضايانا، في أحداث ماسبيرو لم يتم تواصل حقيقي بين مطالب الشباب ودور إيجابي للحكومة مع أطراف الأزمة في كنيسة

قرية المارياناب بأسوان، وتطورتْ الأحداث لتؤدي لمقتل ما يقرب من ٢٥ مسيحيًا، ولم تكن تحدث تلك الكارثة لو تدخلتْ الحكومة، وعقدتْ اجتماعاتٍ جدية بحضور كافة الأطراف المعنية، لكنها أبدًا لم تفعل وقد لا تفعل، فهل يقوم الرئيس الحالي باتخاذ إجراءاتٍ تجنبنا ذلك اللَّبس، وعدم وجود قوانين محددة لبناء دور العبادة المسيحية حتى لا تتكرر المأساة، أم أننا ننسى حتى تتكرر المشكلة؟.

وينسحب ذلك على كتاب سلمان رشدي "آيات شيطانية" ورسوم الكاريكاتير المسيئة وغيرها، ثم الفيلم الحالي المسيء للرسول، فقد ساهم رد الفعل غير المنضبط، وغير الموجه إلى إلقاء اللوم على العالم الإسلامي، وتوجيه التُّهم عوضًا عن الدفاع عنه، بل وأكسب تلك الأعمال شعبية وانتشارًا، لم تكن تستطيع حصدهما، لولا رد الفعل غير المنضبط أو المنطقي.

وهل رد فعل السيد/ أبو إسلام صاحب قناة الأمة بحرق الإنجيل هو حلٌّ للمشكلة؟ إنه نفس الأسلوب الذي يرفضه هو، فقد استطاع مارتن لوثر كينج المناضل الأمريكي الأسود أنْ يجذب كثيرًا من البيض بسبب خطاب التسامح وقبول الآخر، وتأمل مدى شعبية الشيخ/ أحمد الطيب شيخ الأزهر وسط المسيحيين المصريين نتيجة لخطابه المتسامح العقلاني، ومدى شعبية الأنبا موسى أسقف الشباب لدى المسلمين المصريين.

والسؤال الآن: كيف يكون رد الفعل تجاه الإساءة للأديان عمومًا؟.

في جميع الأحوال وتحت أيَّة ظروفٍ، العنف يولِّد عنف، وهو طريق الفريق غير القادر على الحوار، وتوضيح رؤيته بشكلٍ مقنع ورصين، فلابد من إيجاد آلية حوارٍ واتصالٍ مع صانعي القرار، والمنظمات غير الحكومية، ومنظمات الحوار بين الأديان التي تدعو إلى احترام الآخر، مع التأكيد أنَّ الاختلاف هو سُنة الكون، فالاحترام لمعتقدات الآخر لا ينبع من قناعتي بأفكاره أو معتقداته، وإنما ينبع من فكرة حقِّ الاختلاف كحقٍّ أساسي من حقوق الإنسان، ولا يمكن تفسير نصٍ ديني للآخر بناءً على ما يوجد في النص الديني الذي تؤمن أنتَ به، فلن تستطيع تفسير نصٍ للدين المسيحي بناءً على قراءتكَ للنص اليهودي، أو الإسلامي، أو البهائي والعكس صحيح، فكل معتقدٍ هو منظومة متكاملة، تستطيع قراءته في حد ذاته بمعزلٍ عن تفسيرات النصوص الأخرى له، ومن ثمَّ لديكَ الحق بعد ذلك أنْ تتفق أو تختلف، لكنْ في كل الأحوال لابد وأنْ تحترم معتقدات الآخرين، ولابد من قراءة أي نصٍ في إطار الظروف التاريخية المرتبطة به، وبالتالي تستطيع تفسير النص بما يتناسب مع معطياته.

لا جدال إنَّ الأمر شديد التعقيد في جميع أنحاء العالم، لكنه يزداد تعقيدًا في المجتمعات قليلة الوعي غير القادرة على مخاطبة الآخر بنفس لغة الحوار.

(١٢)

الحُرِّية والمسؤولية

أحد أكثر الموضوعات إثارة للجدل، والجدل القائم دائمًا هو حول الحدود الفاصلة بين المسئولية والحُرِّية، ورؤية الأمر في هذا السياق هي رؤية ينقصها الكثير، فالحُرِّية والمسئولية متلازمتان، فالقوانين القائمة التي تساعد في إدارة الحياة بشكلٍ منظَّم، هي التي تجعلنا أكثر استمتاعًا بالحياة، للإنسان حقُّ التظاهر للتعبير عن الرأي، وأيضًا الغضب والاحتجاج والرفض، لكنْ دون أي استخدامٍ للعنف، ومن حقِّ الإنسان انتقاد كافة أشكال الحياة، والأفكار دون إهانة أصحاب تلك الأفكار.

ويتضح ذلك جليًا في التجمعات الحياتية، حين يسكن الإنسان في بناءٍ من عدة طوابق، فلابد أنْ يلتزم بقواعد يتفق عليها الجميع، ولا مجال هنا لاستخدام كلمة الحُرِّية بمعزلٍ عن المسئولية، فالحُرِّية أساسًا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالنضج الشخصي، ووضوح الرؤية.

أنا حرٌّ؛ إذن أنا مسئولٌ، فالمسئولية هنا هي حجر الأساس في اختيارات الفرد، فالفرد الحر مسئول، لذلك فهو بالضرورة يدرك تمامًا تبعات ما يقوم به، فلا نجده مثلًا يتنصل من المسئولية، فالحُرِّية تعطي قدرًا كبيرًا من الثقة بالنفس التي يستتبعها القدرة على الاعتراف بالأخطاء، وذلك جزء هام من التمتع بالحُرِّية، أنْ تعترف بمسئوليتكَ عن أخطائكَ، هذا أحد أركان الحُرِّية الأساسية.

إنكار الأخطاء، هو أحد أشكال الحياة دون حرية، كلما زادتْ المصارحة مع النفس والاعتراف بنقاط الضعف، كلما عاش الإنسان بحرية أكثر، فالحُرِّية تقودنا إلى الحياة بمسئولية.

كلما تمتع الأطفال بحرية في الاختيار، كلما زادتْ قدرتهم على التحلِّي بالمسئولية في مختلف مراحل حياتهم، وذلك يبدأ مثلًا حين تقوم بالذهاب مع أولادكَ للتسوق، فبادئ ذي بدء لابد أنْ يعلم أولادكَ ما تستطيع شراءه، وما لا تستطيع، ويجب أيضًا إعطاؤهم معلومات بسيطة عن الخامات وما إلى ذلك، ومن ثمَّ حين يقوموا بالاختيار، يشعروا بالحُرِّية والمسئولية معًا، ومن هنا تبدأ فكرة الحُرِّية والمسئولية تتبلور في وجدان وعقل الطفل، فيصبح ذات يومٍ قادرًا على اتخاذ قراراته، فالحُرِّية مثلها مثل أشياء كثيرة في الحياة، نتعلمها ونرعاها حتى نكبر معها.

تزداد الصعوبة في التعامل مع فكرة الحُرِّية، إذا لم يعتاد الشخص التعايش مع الفكرة، ووسط ثقافة تشجِّع وتغذي تلك الفكرة، فنحن في حالة صراعٍ دائم مع ما تربينا عليه، وما نعجب به من أفكارٍ في الحياة.

قد نعجب وننبهر، ثم نحاول جاهدين أنْ نتغير، وقد ننجح أو نفشل، وتزداد الصعوبة كلما وُجدنا في محيطٍ مجتمعي لا يدفعنا نحو التغيير، وقد تكون تلك هي متعة الحياة أنْ نتعرف على أشياء جديدة، وننبهر، ونتحمس، فنحاول أنْ نتغير، والمحاولة في حدِّ ذاتها متعة شديدة.

(١٣)

الحُرِّية والسعادة

السعادة هي ما نسعى إليه طوال الحياة، والحُرِّية هي أهم مفاتيح السعادة، فالتحرر من السعي الدائم للتملُّك، والشعور بالسعادة عند التملُّك فقط، هو ما قد يصيب الفرد بالإحباط في حال عدم تملُّكه أشياء بعينها، السعادة ليستْ في الامتلاك، وهذا ليس ضد أنْ تتملَّك أشياء، لكنْ إذا كانت السعادة في الامتلاك، فلن يسعد أبدًا فرد مهما امتلك... فحين تكون السعادة في الامتلاك، يصبح الصراع هو الطريق والهدف، وتصبح السعادة بعيدة المنال، فليستْ الأملاك طريق السعادة، وإذا نظرنا لتخلّي بيل جيتس "Bill Gates" وأوبرا وينفري "Opera Winfrey" عن ثرواتهما، سوف نتفهم كيف يتكون الشعور بالسعادة عند التخلّي والعطاء، وسوف نتفهم أيضًا مدى سعادة الأم تريزا في عطائها الشديد، فالتحرر من فكرة الامتلاك يفتح باب السعادة.

حين تكون السعادة هي الهدف، تصبح الأولويات أكثر منطقية مع فكرة السعادة، نحن نقابل كثيرين في تلك الحياة، منهم: السُّعداء والتُّعساء والأشقياء، وآخرين أحيانًا لا يدركون إذ كانوا يحيون في سعادة أم شقاء، وآخرين يصفون لكَ سعادة هم لا يلمسوها في حياتهم، وكأنهم يتمنون أنْ يعيشوا ما يتحدثون عنه.

- **السايس السعيد:**

أعرف "سايس" سياراتٍ في منطقة الزمالك، وهو من أسوان، شخصية دائمة الابتسام، ولديه شعور بالرضا الواضح الذي قد يحيِّر الكثير من متجهمي الوجوه من بعض أصحاب الملايين، إذا أعطيتَ هذا الرجل أيَّة نقودٍ، لا ينظر إليها، فقط يطبِّق يده عليها، أو يضعها في جيبه شاكرًا ربه على هذا العطاء.

الشعور بالسعادة هو قرار شخصي في أغلب الأحيان، فالكثير يسجنون أنفسهم في أخطاء الماضي، ويعيشون لحظاتٍ مريرة نادمين على ما فعلوا، وقد يكون ما قاموا به بشعًا شنيعًا، لكنَّ الأكثر بشاعة هو الجلوس في حجرتكَ متأملًا الماضي، فالقيام بذلك أشبه بعملية تعذيبٍ ذاتي لا تؤدي في النهاية إلى أيَّة تغييراتٍ حياتية حقيقية، والحقيقة أنَّ كلنا نخطئ، ومهما كانت جسامة الخطأ فلا البكاء حلاً ولا تعذيب الذات منطقًا، فالمنطق العملي هنا يحتم علينا تقييم قدراتنا الحقيقية، وعمل ما نستطيع عمله، والحركة نحو الأمام هي أكثر الخطوات المسببة للسعادة، تجد الكثير من الناس يصاب بالحزن الذي قد يصل إلى حد الاكتئاب حين يتقاعدوا عن العمل، فالعمل هو أحد أشكال الحركة الحياتية، وأحد مسببات السعادة والشعور بالرضا.

- **لا تقف ساكنًا، فقط تحرك للأمام:**

ففكرة التحرُّك، هي فكرة التطوُّر والنمو، وذلك مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسعادة، كلما تعلَّم الإنسان وتعرَّف على أشياء جديدة، كلما ساهم

ذلك في الحركة نحو المستقبل، والابتعاد عن التشبُّث بخطايا الماضي التي قد تسجنه إلى الأبد في شعورٍ بالذنب، لن يسهم في محوه كثرة التفكير فيه، فكلما زاد تفكيركَ في أخطاء الماضي، كلما قلَّتْ قدرتكَ على رؤية المستقبل، وقلَّتْ قدرتكَ على الحركة، فقط حين تتحرك تكتشف أشياء جديدة، تجد الحياة حين تكتشف، ومن ثمَّ تتغير وتتفتح لكَ آفاقًا جديدة.

- **إبراهام لنكولن Abraham Lincoln:**

فكِّر معي في قصة ذلك الرجل إبراهام لنكولن ١٨٠٩م ـ ١٨٦٥م، فقد وظيفته في عام ١٨٣١م، هُزِمَ في انتخاباتٍ تشريعية في عام ١٨٣٢م، فشل في مشروعٍ تجاري في عام ١٨٣٣م، ونجح في انتخابات الهيئة التشريعية لولاية إلينوي في عام ١٨٣٤م، توفيتْ حبيبته في عام ١٨٣٥م، وأُصيب بانهيارٍ عصبي في عام ١٨٣٦م، خَسِرَ الانتخابات في عام ١٨٣٨م، خَسِرَ انتخابات الكونجرس في عام ١٨٤٣م، ثم نجح في انتخابات الكونجرس عام ١٨٤٦م، ثم فَشِلَ في إعادة الانتخاب للكونجرس عام ١٨٤٨م، وفي عام ١٨٥٤م هُزِمَ في انتخابات مجلس الشيوخ، وفي عام ١٨٥٦م هُزِمَ كنائبٍ للرئيس، وفي عام ١٨٥٨م هُزِمَ مرة أخرى في انتخابات مجلس الشيوخ، لكنه أصبح رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٨٦٠م.

تأمل معي حياة إبراهام لنكولن، تأمل فيما حدث، لقد سقط كثيرًا ونهض كثيرًا، ومما لاشك فيه أنَّ تلك هي الحياة نسقط ونقوم، وذلك

الصراع النبيل هو عمق الحياة، فلو سقط شخص في الطريق، وظل قابعًا، باكيًا ونادمًا، لكانت الحياة بكائية شديدة الكآبة، فالحياة هي القيام من السقوط.

هل تعلم أنَّ المدرس أخبر توماس أديسون أنه أغبى من أنْ يتعلَّم أي شيءٍ، لكنه لم يتوقف كثيرًا أمام ما قاله ذلك المدرس، وعمل واجتهد كثيرًا حتى أصبح لديه أكثر من ألف اختراع.

- **والت ديزني Walt Disney:**

فكّر أيضًا في والت ديزني "Walt Disny" تمَّ الاستغناء عنه من الصحيفة التي يعمل بها لقلة خياله، وعدم تمتعه بأفكارٍ أصلية إبداعية، فقام هو باختراع شخصية ميكي ماوس "Mickey Mouse" وكان مخرجًا، وكاتبًا، ورجل أعمال، وكان شديد العطاء في أعمال الخير.

فتلك القصص، وغيرها الكثير توضح مصادر السعادة المتعددة.

تأمل سعادة كثير من الآباء حين يعطوا دون حدود، فلم ولن يجبرهم أحد على ذلك العطاء غير المحدود، فهو نابع من الحُرِّية، فكلما أجبرتَ الإنسان على فعل شيءٍ ما، كلما كانت النتائج العكسية أقرب إلى الحدوث.

نجد السعادة حين يتناغم ما نفكِّر فيه مع ما نقوله وما نفعله

" غانـدي"

السعادة الحقيقية موجودة داخلنا، فعلينا العمل بجدٍّ حتى نكتشفها، ما يقوله غاندي عن السعادة، هو شديد الصدِّق والواقعية في آنٍ واحد، فكثير من الأمراض النفسية التي يصاب بها الناس لها علاقة كبيرة بعدم القدرة على فعل ما نقوله ونفكّر فيه، كثير من الناس يفتقد التلقائية في حياته لدرجة أنه يكاد لا يعرف نفسه من كثرة ارتداءه لقناعاتٍ متنوعة، يرتدي كل واحدٍ على حده، وعندئذ يفقد الإنسان اتساقه مع ذاته، فهو يقول ما لا يقنعه لإرضاء كل مَنْ حوله، فتارةً يرضي الزوج أو الزوجة، ثم المدير، ثم آخرين وآخرين، حتى يجد نفسه يقول كلماتٍ غريبة عليه، ولا يعرف إنْ كانت تلك كلماته أم كلماتٍ فرضتْ عليه، وحين تفرض علينا الكلمات التي تخرج منا، نفقد كثيرًا من السعادة، فالسعادة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالتلقائية، وكلما زادتْ تلقائية الإنسان، كلما زادتْ احتمالية أنْ يصبح سعيدًا.

فما يخرج من القلب، هو أنتَ كما أنتَ بكل مميزاتكَ وعيوبكَ، وقد يعطيكَ هذا أيضًا فرصة في أنْ تعرف نفسكَ كما أنتَ، وعندئذ تستطيع أنْ تُغيِّر من نفسكَ إلى الأفضل بالنسبة لكَ.

والأفضل في حد ذاته أمر نسبي بحت، لم ولن يتفق عليه الجميع، ونتأمل ولو قليلًا ذلك الصبر المضني، والمثابرة الشديدة لدى العالم الكبير إسحق نيوتن، وكبير رسامي عصر النهضة مايكل أنجلو، ماري كوري، فيروز وكثيرين وجدوا سعادة فيما يقومون به، وكلما

زاد محيط الحُرِّية، كلما زادتْ الرغبة في التحليق عاليًا نحو آفاقٍ جديدة، فالحُرِّية هي الوقود الذي يشعل داخلنا الرغبة في استكشاف أغوار ودهاليز الحياة، ومن ثمَّ نستطيع أنْ نعرفها، فنسعد بها.

- **خوزيه موخيكا José Mujica:**

إنه حقًا رجل سعيد، خوزيه موخيكا رئيس أوروجواي Uruguay يتبرع بـ٩٠% من راتبه البالغ ١٢٥٠٠$، فيتقاضى فقط ١٢٥٠$، وتقوم زوجته بالتبرع بجزءٍ من راتبها هي الأخرى، ويلقبوه بأفقر رئيسٍ، لكنه ليس أبدًا كذلك، ليس لديه حساب بالبنك، ومتعته الشديدة هي قضاء وقت مع "مانويلة" كلبته، ويعيش في منزلٍ ريفي، ويركب سيارة فولكس واجون Volkswagen قديمة.

المال يفقد بريقه بمرور الوقت، ولكنْ توجد أشياء لا يستطيع المال القيام حيالها بأي شيءٍ، السعادة مرتبطة بنوعية الحياة والرضا، وليستْ بكثرة المال المخزَّن في البنوك، وفي نهاية المطاف الفرد يصنع حياته من خلال قراراته، والسعادة في حد ذاتها قرار.

ليس المال في حد ذاته سببًا للسعادة أو التعاسة، إنه نحن، نحن ما نسعد أو نشقي أنفسنا.

(١٤)

الحُرِّية وبناء الإنسان

دائمًا ما يصاب العقل بالحيرة، وينفجر غضبًا رافضًا الكثير مما يراه في واقعٍ، يكاد يصل إلى درجة من العبثية والسواد، في أحيانٍ يتعثر معها فِهم الواقع، وفِهم سلوك وردود أفعال الآخرين، ويبدأ تساؤل منطقي.. كيف يكون عقل الكثيرين بهذا الانغلاق، ورفض كل آخر دون حتى معرفته أحيانًا؟.

وتتجلي الصورة حتمًا، حين نفكّر في الحُرِّية كمصدرٍ أصيلٍ وأساسي في بناء إنسان قادر على التعامل مع الحياة، واتخاذ كل قراراته بنفسه، وليس بناءً على ضغوطٍ عائلية أو مجتمعية.

ففي نظام مجتمعي أبوي غالبًا لا يكتشف الأشخاص هويتهم الحقيقية، والكثير منهم يظل أسير الأنماط السائدة إلَّا هؤلاء المتمردين القادرين على إحداث التغيير في أي مكانٍ، ففي المجتمع الأبوي تُرسم الأدوار مسبقًا، وعلى الممثّلين القيام بأدوارهم وإلَّا سوف يتم نبذ المتمردين بنظامٍ محكم، وتكون هنا الحُرِّية هي الملجأ كي يعيش الإنسان فرديته.

ومكونات بناء الإنسان عديدة بدءًا من الأسرة، الدين، العادات والتقاليد، وسائل الإعلام، الثقافة السائدة، يكون من الصعوبة بمكان أنْ يصبح الإنسان حُرًا في مجتمعٍ تسوده ثقافة القهر المطلق غير

القابل للنقاش، وهذا ما يوضح صعوبة أنْ تكون حُرًا في مصر وكثير من دول العالم، إنْ لم يكن أغلب العالم بدرجاتٍ مختلفة.

لابد أنْ يعيش الإنسان في حرية مطلقة حتى ولو أخطأ، فالخطأ جزء من الحياة، ومَنْ منا لم يخطئ قط، وما أجمل تذكُّر قصة المرأة التي أمسكها بعض اليهود في حالة زنا، وقدموها للسيد المسيح كي يحكم عليها، وفي شريعة موسى كان الحكم، هو الرجم حتى الموت، لكنْ.. ماذا فعل المسيح؟.

هنا، قال لهم السيد المسيح:

ـ مَنْ كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجرٍ.

وحينئذٍ أدرك الجميع أنهم لن يستطيعوا أنْ يلمسوا تلك المرأة فرحلوا، فليس منا ولن يكون مَنْ هو بلا خطيئة، وتعد هذه القصة من وجهة نظري من أعظم ما كُتِبَ في الكتاب المقدس، فهي تتحدث عن مدى ظلم البشر بعضهم لبعض، واستخدامهم للنصوص الدينية لقهر الآخرين والحكم عليهم، وذلك فيما هم غافلين عن خطاياهم، إذ ليس من الطبيعي أنْ يكون لإنسان الحكم على آخر مهما كان موقعه، أو حتى مركزه الديني.

وهنا تتضح أهمية وجود دستور يكرِّس قيمة مدنية الدولة، وأنْ لا تعطي فرصة للبشر لتطبيق ما يعتقدون، إنه قانون مقدس لديهم، فكم من الجرائم ترتكب باسم الدين والعقائد.

أبناؤكم ليسوا لكم.. أبناؤكم أبناء الحياة

والحياة لا تعيد في منازل الأمس

"جبران خليل جبران"

كم قُيِّدتْ حرية الكثير من الأبناء؛ لأنَّ أهلهم رأوا أنْ يرسموا لهم الحياة التي يرون أنها الأمثل، وعانى الكثير من حياة لا يرغبون فيها، والكثير من الآباء يتمنون أنْ يروا أولادهم تنجح فيما أخفقوا فيه، فلمَنْ هذا النجاح إذًا؟! وحين يعيش شخص ما حياة خططها له آخرون، فكيف له أنْ يكتشف ذاته، وينطلق الإنسان مكتشفًا ذاته حين يكون حُرًا.

فتكوين عقل حر، ليس بالأمر اليسير، والعقل الحُرُّ لا يخاف أو يرتعش من مواجهة المجهول، ولا يحاول أنْ يلعب على الضمان، فهو يمتلك الجرأة الكافية لفك كل القيود، وعلاقة الحُرِّية بين الآباء والأبناء ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمعايير كثيرة، مثل: المرحلة العمرية، ودرجة الوعي والتعليم.

ونظرًا لاختلاف الأجيال بين الآباء والأبناء، فتختلف نظرة كليهما للحياة وهذا أمر طبيعي، ولكنْ يظل كثير من الآباء في حالة صراع دائم مع أبنائهم؛ كي يصبحوا نسخة طبق الأصل في كثيرٍ من الأمور.

إذًا فمن الطبيعي أنْ يختلف الآباء والأبناء في كثيرٍ من الأشياء، وهذه هي الحياة، أنْ نختلف ونقرر، أنْ نسير في طرقٍ جديدة قد

تبدو غير مضمونة، أو عسيرة وغير واضحة المعالم، ومع ذلك نسير فيها رغم الصعاب، مَنْ أجبر الأخوين رايت The Wright brothers أنْ يحاولا كثيرًا حتى تنجح تجربة الطيران، فقد كان الدافع الأساسي هو العشق لفكرة الطيران التي سيطرتْ على حياتهما، فأصبحتْ شغلهما الشاغل، وكيف تحوَّل عزت أبو عوف للفن وترك الطب، ويحيى الفخراني الذي ارتمى في أحضان الفن وآخرون.

حين يدرك كل فردٍ.. ماذا يريد تمامًا، ويصبو إليه بكل طاقته، فالنجاح هنا مسألة وقت، ونحن نضيع الكثير من الوقت في النظر، وإعادة النظر فيما قام به الآخرون دون النظر داخلنا أولًا، فنفقد البوصلة التي تقودنا نحو الهدف، والتركيز الشديد فيما يقوم به الآخرون، هو أحد العوائق التي تُحيِّل بيننا وبين فِهمنا لذواتنا، فوضع الآخر نُصب أعيننا غالبًا ما يصيبنا بالعمى، فالتركيز في الذات، وما تستطيع القيام به، يكشف لكَ قدراتكَ الذاتية، وما تستطيع القيام به حين تحاول.

مشكلة الكثير من الآباء، هي محاولاتهم الحثيثة رؤية أحلامهم التي لم تتحقق محققةً في أبنائهم، فيحاولوا جاهدين رسم حياة الأبناء في أغلب التفاصيل وخصوصًا العمل، فمَنْ فَشِلَ، ومَنْ نَجحَ في أنْ يصبح طبيبًا يرغب في نفس الشيء لأبنائه أنْ يصبحوا أطباء ـ وعجبي ـ أدرك تمامًا أنَّ كثيرًا من الآباء لا يدركون لماذا يرغبون في أنْ يصبح أبناؤهم أطباء، وقد تكون فكرة الوجاهة الاجتماعية لتلك الوظيفة، هي المحرِّك الأساسي للضغط على الأبناء، وقد

يكون الأب رجل أعمال، ويرغب في ترك كل أعماله لأحد أبنائه، وهذا إلى حدٍ كبير يبدو منطقيًا، لكنه ينزع فكرة الاختيار من حياة الأبناء، وتلك هي الكارثة الكبرى، وهذا يجمد إلى حدٍ كبير معرفة الطفل لنفسه ولقدراته، فالطفل يعرف نفسه حين نعطِه الفرصة لاكتشافها، والاكتشاف يعتمد على مدى الحُرِّية.

وفي محاولة اكتشافنا لذواتنا، نرتكب أخطاءً، نحتار، نأمل، ثم نيأس، نتعلَّم ونعلِّم، وتسير الحياة، ونرى المبدعين في كافة المجالات، وهم الذين استطاعوا أنْ يتعرفوا على العشق الكامن في قلوبهم، وعملوا جاهدين على تحقيق ما حلموا به.

(١٥)

وتظلُّ الحُرِّية هي الحل

تحاول كافة القوى السياسية على مر العصور، وفي كل مكانٍ أنْ ترسخ وجودها في الواقع السياسي عن طريق العديد من الطرق، إما عن طريق إقصاء الآخر، أو عن طريق تشويهه، وطرق أخرى كثيرة، ولنا في التاريخ شواهد كثيرة، ويظل الطريق الأكثر حكمة وديمومة، هو طريق مختلف تمامًا.

طريق التنمية المستدامة، هو الطريق المؤدي إلى الخلاص من عالم اللّت والعجن، الكلام المستدام لن ينقذ واقعنا المزري من الانهيار، فقد آن الأوان أنْ نتوقف عن الكلام، ونعمل نحو آفاق مستقبلٍ ينعم فيه الجميع بحقوقٍ متساوية بعيدًا عن هذا الفِكر القبلي الذي يتزعمه حزب النور، والفِكر العنصري الذي ترأسه سابقًا الإخوان.

لم نشهد طوال وجود اليمين الديني المتطرف في سدة الحكم أفكارًا تنموية تجعل لديهم مبررًا ما من الوجود في المشهد السياسي المصري، الوجود في أي مشهدٍ في الحياة، لا يرتبط بحقِّ الوجود، وإنما بالجدارة في الوجود، والجدارة هنا ترتبط بالتنمية والفِكر الإبداعي، وهو ما يفتقده تمامًا تيار اليمين الديني المفلّس، ليستْ القضية هنا أنْ تحكي بكلماتٍ دينية منمقة عن الإصلاح، وأنتَ فاسد ومخرِّب، ولا تقبل الآخر.

التيار اليميني الديني مفلّس تمامًا، لا يملّك سوى المشاكسة، وإضاعة الوقت بعدما فَشِلَ في إدارة البلاد، ففكرة الكفاءة الإدارية لم تخطر على باله قط، وإنما الشللية والأهل والعشيرة تربعوا على عرش الحكم، فأضاعوا الحكم، وكادوا أنْ يضيعوا البلاد معهم.

المصريون في وجود أي دستورٍ، لابد وأنْ يصبحوا متساوين أمام القانون، لذا فلا مجال لنبذ أي فريقٍ مهما صغر حجمه، أو لم تعترف به الأغلبية، ولابد أنْ يعلَّم الجميع أنَّ احترام حقوق الأقليات مهما قلَّ عددهم، يساعد في بناء وطن قوي، تندمج فيه الأقلية، وتصبح أكثر فاعلية، لابد من مراعاة حقوق المصريين غير المسلمين والمسيحيين، وبما أنَّ معظم دساتير العالم والمنطق والفطرة تنادي بحرية العقيدة، وبما أنَّ المنطق الوطني، يقول: "أنَّ كل مَنْ وُلِدَ في أرض مصر، فهو مصري"؛ لذلك وجب على الجميع احترام فردية الجميع، لن ينهض وطن إلَّا حين يشعر كل مواطنيه بأنهم جزء أصيل من تراب الوطن.

اعترافكَ أو إنكاركَ لبعض العقائد، لن ينفي وجودها، وأساسًا ليس من حقكَ مناقشة الآخرين فيما ذهبوا إليه على أنه الحق المطلق لديهم، دوركَ ينتهي عند حدود حقكَ في نشر أفكاركَ دون التعرُّض للآخرين بأيَّة إهانة أو تجريح شخصي، والشخص السعيد بما يؤمن لن يعنيه كثيرًا اختلاف الآخرين معه، لكنه قد يجد أيضًا فيها الكثير من الأفكار الروحية، التي تشبعه نفسيًا في كثير من الأحيان.

مَنْ لا يطيق الحُرِّية، هو شخص خائف ومذعور، وليس عنده ما يقدمه، فهو يخشى كل جديدٍ ومختلف، وليته قادر على عمل

اختلاف في الواقع، ولدينا في الواقع المصري الكثير من المذعورين والمأجورين والمنافقين، لذا علينا جميعًا أنْ نتحرر من الخوف، وننطلق، ونبدع، فالحياة أقصر من أنْ تضيع خوفًا من أنْ نعيش...

وتظلُّ الحُرِّية هي الحل.